الفصل الرابع

خطاب النداء في الحديث الشريف

الفصل الرابع

خطاب النداء في الحديث الشريف

وهو لون من الخطاب لا يكون الا في أمر هام، يقتضي استدعاء المخاطب، بوساطة أدوات تفيد بمؤازرة السياق التركيبي دلالات تعبيرية خاصة، فهي بمثابة منبه يوقظ الذهن والشعور.

وهو من أكثر أساليب الكلام تصرفاً في الإغراض والمواقف، فكما يُنادى الحي العاقل الذي لا يجاوز امتداد صوت المنادى، يُنادى الحي العاقل الذي يبعد ويخرج عن هذا الإطار، وكما يُنادى العاقل يُنادى غير العاقل، وفي هذه الحالة ينتقل هذا الأسلوب بدلالته من وسيلة إبلاغ وإقناع الى وسيلة ترويح عن النفس وأداة تأثير فني.

وأكثر المواقع التي تجري فيها أداة النداء هي السياقات الانفعالية، ذات الحس الطاغي والموقف المفعم، فتكون الأداة فيها كأنها صيحة او صرخة يطلقها البليغ من اجل لفت نظر المخاطب لأمر يريده المتكلم.

وكثيراً ما يتقدم النداء أسلوب طلب، كالأمر او النهي او الاستفهام، فيقوم بمهمة تنبيه المخاطب وإيقاظ مداركه وحواسه لتلقي هذا الطلب وتنفيذه، فيصبح له دور مميز في سياق الطلب، إذ انه يتفاعل معه تأثراً وتأثيراً، ويعمق بعده الأدائي وصولاً الى الهدف. لذلك فهو يغطي مساحة واسعة من فنون القول، ويكثر في الأحاديث النبوية الشريفة التي سنأتي على ذكر شواهد منها.

النداء في اللغة والاصطلاح

النِّدى في اللغة: بُعدُ الصوت والنداء ممدود الدعاء بأرفع الصوت، وقد ناداه ونادى به، وناداه مناداة ونِداءً أي صاح به، وتنادوا أي نادى بعضهم بعضاً[1]. وهو أندى صوتاً منه أي ابعد[2].

والنداء في أصل الاستعمال مدّ الصوت لنداء البعيد. يدل على ذلك قوله تعالى " ونادَيْناهُ مِن جانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرّبْناهُ نَجِيّاً " [3].

فقد بين الله تعالى – انه كما ناداه ناجاه أيضاً، فالنداء مخاطبة الأبعد، والمناجاة مخاطبة الأقرب[4].

والنداء إنشاء لأنه ينشأ بفعل المتكلم حين يعبر به عن أمر في نفسه[5]. وهو أسلوب القصد منه التنبيه وحمل المنادى على الالتفات[6].

والنداء في اصطلاح البلاغيين: هو طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة[7].

والنداء كثير الاستعمال في كلام العرب إذ يستعمل في أول كل كلام، وقد جعلوه بمنزلة الأصوات، يقول سيبويه: " وإنما فعلوا هذا بالنداء لكثرته في كلامهم، ولأن أول الكلام أبداً النداء، إلا ان تدعه استغناءً بإقبال المخاطب عليك، فهو أول كل كلام لك به تعطف المكلّم عليك، فلما كثر وكان الأول في كل موضع، حذفوا منه تخفيفاً لأنهم مما يغيّرون الأكثر في كلامهم حتى جعلوه بمنزلة الأصوات " [8].

والنداء ليس مقصوداً بالذات على الرغم من كثرته في الكلام بل الغرض منه تنبيه المخاطب للإصغاء والاستماع الى ما يجيء بعده من الكلام. فالمتكلم يلجأ الى النداء لتنبيه مخاطبه وعطفه عليه، حتى يختصه بين سائر المخاطبين بأمره او نهيه او استفهامه او خبره. يقول سيبويه: " ان المنادى مختص من بين أمته، لأمرك ونهيك او خبرك " [9].

---

(1) لسان العرب (ندى): 187/20 ؛ الصحاح: 553/2 .
(2) معجم مقاييس اللغة: 412/5
(3) مريم / 52 .
(4) أساس البلاغة: 946 ؛ البرهان: 324/2 .
(5) نحو المعاني: 112، 145 .
(6) في النحو العربي، نقد وتوجيه: 301 .
(7) المفتاح: 154 ؛ الإيضاح: 146/1 ؛ التلخيص: 172 ؛ شروح التلخيص: 333/2 .
(8) الكتاب: 208/2 ؛ وينظر البرهان: 325/2 .
(9) الكتاب: 231/2-232 .

وقد جرد بعض الباحثين أدوات النداء من أية وظيفة أخرى عدا كونها أدوات تنبيه، وهي مثل (ألا) التي للتنبيه ومثل (ها) التي تدخل على أسماء الإشارة إلا انها أقوى تنبيهاً منهما، وادعى لالتفات المخاطب وإسماعه الصوت[1].

أدوات النداء في الحديث الشريف ودلالاتها

جاء النداء في حديث رسول الله ﷺ معبراً عن معانٍ مختلفة، وملبياً حاجة الدعوة الإسلامية الى الإبلاغ والتنبيه والتوجيه.

وقد مال ﷺ في حديثه الشريف الى طائفة من أدوات النداء[2] امتلكت خاصية تحقيق الغرض من هذا الأسلوب، وهي:

يا، اللهم، أي، وا، فضلاً عن إجراء النداء بحذف الأداة.

(1) ينظر، النحو العربي، نقد وتوجيه: 302 ؛ أسلوب النداء ونظرية العامل، د. عبد الحسين الفتلي الفتلي ؛ مجلة الجامعة المستنصرية، العدد الرابع، السنة الرابعة، 1974، ص 31 .

(2) أدوات النداء عند النحاة هي: الهمزة، أي، يا، أيا، هيا، آ، أي، وا، ينظر: الكتاب: 182/2، 220 220 ؛ المقتضب: 233/4 ؛ شرح الكافية: 381/2 ؛ شرح المفصل: 118/8 ؛ همع الهوامع: 172/1 ؛ رصف المباني ؛ المالقي: 52 .

يا:

وقد أطلق العلماء عليها أم حروف النداء[1]، وانه لا يقدّر عند الحذف سواها، ولا ينادى اسم الله – عز وجل – إلا بها[2] .

وذهب أكثر النحاة الى أن حرف النداء (يا) يختص من بين سائر حروف النداء باستعماله في نداء البعيد مسافة او حكماً، وذلك من اجل امتداد الصوت ورفعه به حين يريدون مدّ صوتهم في النداء[3] . لأنها تنتهي بالألف الملازمة لمدّ الصوت[4]. فالمنادى لا يقبل إلا بالاجتهاد في رفع الصوت ومدّه[5].

وهي أكثر حروف النداء استعمالاً في الحديث الشريف، فقد استعملت في نداء البعيد بجسمه، او بروحه وفكره.

فمن استعمالها في البعيد جسماً على وفق ما وضعت له أصلاً، قوله ﷺ وقد صَعد على الصّفا منادياً بطون قومه عند نزول الآية (وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ)[6] .

" يا بني فِهر، يا بني عَدِيّ " – لبطونِ قريش – حتى اجتمعا، فجعلَ الرجلُ إذا لم يستطع أن يَخرُجَ أرسل رسولاً لِينظرَ ما هو ... [7] .

---

(1) رصف المباني: 451 ؛ الجنى الداني: 349 ؛ معاني الحروف للرماني: 92 .
(2) الجنى الداني: 349 ؛ مغني اللبيب: 373/2 .
(3) نفسه .
(4) أساليب الطلب: 224 .
(5) الكتاب: 230/2 ؛ الكشاف: 224/1 .
(6) الشعراء / 214 .
(7) فتح الباري: 642/8 .

وكذلك قوله منادياً أصحابه عندما دعاه جابر بن عبد الله ﷺ الى طعام:
" يا أهل الخندقِ، إنّ جابراً قد صنع سُوراً[1]، فحيّ هلا بكم " [2].
فالنداء بـ(يا) أريد به طلب الإقبال حقيقة ليلقي على أسماع الكفار في الحديث الأول دعوة الإسلام، وينذر بسوء العاقبة ان لم يستجيبوا، ويدعو أهل الخندق ويطلب إقبالهم عليه في الحديث الثاني.

اللهم:

ومما ورد من أدوات النداء في معرض الدعاء في الحديث الشريف لفظ الجلالة الأفخم (اللهم).
ولفظ (اللهم) من الأسماء الخاصة بالنداء وأصله عند أكثر النحاة (يا الله) فحذفت أداة النداء وعوض عنها (الميم) المشددة في آخره[3].
ولم يقتنع ابن القيم بما قاله النحاة، بل بحث عن سر اختيار الحرف (ميم) في (اللهم) دون غيره فيقول:
الميم حرف شفهي يجمع الناطق به شفتيه، فوضعته العرب علماً على الجمع ... يقال للمخاطب (أنت، انتم) وللغائب (هو، هم) .... (ضربت، ضربتم)، (إياك، إياكم)، (إياه، إياهم) وهكذا.
وإذا علم هذا من شأن الميم، فهم قد ألحقوها في آخر هذا الاسم (اللهم) الذي يسأل العبد به ربه – سبحانه – في كل جهة، وكل حال، ايذاناً بجمع أسمائه تعالى وصفاته[4].
وتوصل احد الباحثين المعاصرين[5] الى أن (اللهم) هي لفظ (الله) نفسها ولكن الأولى احتفظت بلاصقة (التمييم) فتكون الميم المشددة في آخرها ليست صوتاً عوّض به عن (يا) النداء المحذوفة، وإنما هي جزء من الكلمة بقى ملتصقاً بها من أصل قديم. وهي تساوي في العبرية (الوهيم) لأن الياء والميم علامة جمع للتعظيم. فتكون (اللهم) اسم الله تعالى منادى بحرف النداء (يا) مقدراً، وهي صحيحة إذا وردت مع (يا) لأنه الأصل.

(1) سوراً: أي طعاماً يدعو اليه الناس، واللفظة فارسية . النهاية: 420/2 .
(2) فتح الباري: 503/7 .
(3) الكتاب: 196/2 ؛ المقتضب: 239/4 .
(4) ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين: 46-50 .
(5) الدكتور سلمان القصاة في بحثه، اللهم، رؤية جديدة في الصيغة والإعراب، مجلة التربية والعلم، كلية التربية، جامعة الموصل، العدد 11، 1991 م، ص 71-76 .

وسنذكر نماذج من دعاء رسول الله بهذه الأداة ضمن المعاني البلاغية لأسلوب النداء.

أي:

يرى عدد من النحاة انها لنداء القريب[1]. وتابعهم في هذا أكثر البلاغيين[2] وهي تصلح ان تكون أداة لتنبيه القريب لأن سكون الياء فيها لا يعين على مدّ الصوت ورفعه بها[3].

وقد وردت(أي) في الصحيح في عدد من الأحاديث الشريفة وجميعها خاطب رسول الله ﷺ بها المنادى القريب أي أنها استعملت لما وضعت له أصلاً – عند أكثر العلماء – ولكنها في هذه المواضع أفادت معاني أخرى غير طلب الإقبال.

من ذلك أن السيدة عائشة (رضي الله عنها) قالت: " استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: " أئذَنوا له، بئسَ اخو العشيرة، او ابن العشيرة " فلما دخل الانَ له الكلام. قلت: يا رسول الله قلتَ الذي قلتَ ثم أَلنتَ له الكلام. قال:

(1) المقتضب: 235/4 ؛ المفصل في علم العربية، الزمخشري: 309، شرح الكافية: 381/2 .
(2) من بلاغة النظم العربي: 135 ؛ علم المعاني، عبد العزيز عتيق: 125 ؛ علم المعاني، درويش الجندي: 58، البلاغة الاصطلاحية: 186 .
(3) أساليب الطلب: 227 .

" أَي عائشة، ان شرَّ الناسِ مَن تَرَكَهُ النّاسُ اتّقاءَ فُحشِهِ " [1] .

وخاطب النبي ﷺ عمّه أبا طالب في احتضاره فقال:

" أي عَمِّ، قل لا إلهَ إلاّ الله كلمةً أحاجُّ لكَ بها عندَ الله " [2].

وقال ﷺ مخاطباً السيدة خديجة (رضي الله عنها) عندما عاد الى بيته من خلوته، يصف روعه وانفعاله بسبب نزول الوحي عليه لأول مرة.

" أيْ خديجة، مالي لقد خَشِيتُ على نفسي؟ " [3] .

وقال ﷺ حاكياً عن أصحاب له يأتون يوم القيامة وهم يذادون عن الحوض:

" أي ربِّ، أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدَثوا بعدَك " [4][5] .

فـ(أي) في الحديث الأول أفادت تنبيه السيدة عائشة وإفهامها مقصد رسول الله ﷺ، فهو لما جبل عليه من الكرم وحسن الخلق، اظهر لرجل السوء البشاشة ولم يجبه بالمكروه، اتقاء بذاءة لفظه وفحش عمله. وهذا هو الأسلوب الأمثل للتعامل مع نوع كهذا من البشر، سلكه الرسول ﷺ لتقتدي به أمته، وتسلم من غائلة شره.

وأراد رسول الله بنداء عمه – في الحديث الثاني- وهو قريب منه، ترغيبه وحثه على النطق بكلمة التوحيد قبل موته، حتى يستطيع ان يشهد له بها أمام الله عز وجل يوم الحساب.

وخاطب السيدة خديجة، في الحديث الثالث، بأداة النداء (أي) مثيراً انتباهها لتستمع له وتنصت. وقد تواشج النداء مع صيغة الاستفهام التعجبي (مالي) لتعميق الإثارة وترسيخ صورة الانفعال الذي لم يألفه في نفس السيدة خديجة (رضي الله عنها)، علّها تشاركه الرأي والوجدان، وتخفف عنه المعاناة.

وفي، الحديث الأخير، الذي يصدره رسول الله ﷺ بالأداة (أي)، استشعاراً في نفسه بقربه في المنزلة من الله عز وجل، تبدو ضراعة التوسل والشفاعة والرجاء من الله سبحانه وتعالى بأن يرحم أصحابه في الدنيا ويأذن لهم بورود الحوض.

وا:

---

(1) فتح الباري: 10/577-578 .
(2) نفسه: 7/245 .
(3) نفسه: 8/927 .
(4) نفسه: 13/4 .
(5) وتنظر هذه الأداة أيضاً، فتح الباري: 3/434 6/60 ؛ 11/46، 378، 582، 600، 12/24 ؛ 13/61 .

وهي إحدى أدوات النداء، وتستعمل في الندبة، وهي نداء المتفجع عليه او المتوجع منه[1]، والندبة نداء خاص لأنها نداء الهالك، لذلك فهي موضع يقتضي رفع الصوت ومده اعلاماً للسامعين بالفجيعة او المصيبة[2].

ولما كانوا يرفعون أصواتهم عندها ويمدونها لإسماع جميع الحاضرين، فهم يستعملون في أدوات المد (وا) و (يا)، وقد لا يكتفون بما فيها من مد فيلحقون آخر الاسم المندوب بمد آخر هو الألف التي تلحقها الهاء في الوقف، مبالغة في مد الصوت والترنم به[3]، لأن المندوب في غاية البعد[4].

و (وا) أكثر اختصاصاً بالندبة من (يا) – التي تستعمل إذا أُمن الالتباس بالنداء الحقيقي – لأن المدّ الكائن في الواو والألف أكثر من المد الكائن في الياء والألف[5].

وقد وردت الأداتان بهذا المعنى في الحديث الشريف، سنأتي على ذكرها ضمن المعاني البلاغية لأسلوب النداء النبوي.

(1) الجني الداني: 346 ؛ شرح قطر الندى، ابن هشام: 38 .
(2) أساليب الطلب: 285 .
(3) الكتاب: 231/2 ؛ المقتضب: 268/4 ؛ أسرار العربية، الانباري: 243 .
(4) الأصول في النحو: 355/1 .
(5) شرح المفصل: 120/8 .

النداء محذوف الأداة

وقد أجاز النحاة حذف أداة النداء من الكلام تخفيفاً، إذا كان المنادى مقبلاً عليك منتبهاً لما تقوله له، ولذلك جعلوه خاصاً بالمنادى القريب[1]. وتقدر (يا) عند الحذف دائماً.

وقد حذفت أداة النداء في عدد من الأحاديث الشريفة تخفيفاً وإيجازاً، او ملاطفة ومؤانسة، عندما يقتضي الموقف ذلك.

فمن النوع الأول قوله ﷺ لأبي هريرة:

" أبا هرّ، الحق أهل الصُّفةِ [2]، فادعُهم إليَّ 000 " [3].

ان حذف أداة النداء وترخيم العلم[4] . حصلاً لتحقيق السرعة من اجل اللحاق بأهل الصفة ودعوتهم قبل ان يفوته الوقت ويتعذر اللحاق بهم، والبلاغة كما هو معروف مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

ومن الثاني قوله ﷺ لعلي ﷺ عندما رآه مضطجعاً في المسجد، وقد سقط رداؤه عن شقه وأصابه تراب:

" قُمْ أبا تُرابٍ، قُمْ أبا تُرابٍ " [5] وهو يمسح التراب عنه ملاطفاً ومؤانساً لعلمه بأنه خرج من بيته مغاضباً زوجته السيدة فاطمة (رضي الله عنها).

يقول ابن حجر: " إن حذف حرف النداء ونداءه (بأبي تراب) فيه ممازحة المغضب بما لا يغضب منه، بل به تأنيسه وتسكينه من غضبه 000 وناداه بالكنية المذكورة المأخوذة من حالته مداعبة له " [6].

ويرى الزمخشري المعنى نفسه في سبب حذف حرف النداء. يقول في قوله تعالى (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذا) [1]: حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مفاطن للحديث، وفيه تقريب له وتلطيف لمحله " [2].

---

(1) الكتاب: 230/2 ؛ شرح المفصل: 15/2 .

(2) أهل الصفة: هم اضياف الإسلام، وكان النبي ﷺ يخصهم بما يأتيه من الصدقة، ويشركهم فيما يأتيه من الهدية . ينظر فتح الباري 344/11 .

(3) فتح الباري 37/11 .

(4) الترخيم: وهو حذف آخر الاسم تخفيفاً . التعريفات: 30 .
وقد ورد المنادى مرخماً في حديث رسول الله ﷺ في خمسة مواضع: ثلاثة منها لحق الترخيم فيها العلم أبا هريرة، ومرّة رُخّم اسم عائشة (رضي الله عنها) يا عائش، وأخرى مع انجشة اذ ناداه الرسول ﷺ (يا انجشُ) والغرض من الترخيم في هذه المواضع قد يكون تخفيفاً بقصد سرعة الفراغ من النداء والإفضاء الى المقصود، او قد يكون للتحبب والملاطفة . (تنظر هذه الأحاديث في فتح الباري: 515/1 ؛ 133/7 ؛ 646/9 ؛ 711/10) .

(5) فتح الباري: 705/10 .

(6) نفسه: 704/1، 718/10 .

ولا ننسى دور التنغيم المصاحب للكلام وأثره الواضح في إظهار المعنى المقصود " ذلك ان الصوت والنطق يمكن ان يفصحا عن طبيعة انفعالية " [3].

فالتنغيم في نسيج الكلام يمكن ان يكشف عن معناه، لأن " المعنى الذي يقصد اليه المتكلم يرتبط ببناء الجملة (الكلمات وتركيبها) والتنغيم، حيث يندمج هذان العنصران معاً ليكوّنا المعنى الكامل لما يقال في وقت محدد وفي سياق معين" [4].

ولا شك ان الإيقاع في الحديث قد كشف عن مشاعر الرسول الكريم مع محدثه علي بن أبي طالب ﷺ وما يترشح عنها من حب وملاطفة وتأنيس، هذا فضلاً عما حققه من جمال وحسن وقع تطرب له النفس من جراء تكرار الجملة، الذي زاد في التأنيس والملاطفة.

ويلاحظ ان أداة النداء قد حذفت في عدد من الأحاديث التي يتوجه فيها رسول الله ﷺ:

" لك الحَمدُ ربَّنا غير مَكْفِيّ، ولا مُوَدَّع، ولا مُستَغنىً ربّنا " [5] .

" ربِّ اغفر لي خطيئتي وجَهلي، وإسرافي في أمري كلِّهِ وما أنت اعلم به مني " [6].

" أَذهِبِ البأس، ربَّ الناس، اشف وأنتَ الشافي " [7] .

ان حذف حرف النداء في خطاب الرب تعبير عن شعور الرسول ﷺ بقربه من ربه، وشدة تلهفه على الإجابة في مقام تتعجل فيه النفس الرحمة والغفران.

ويندر انه ﷺ خاطب ربه – سبحانه – بـ(يا)، وربما يرجع ذلك الى خشية أن يتشرب معنى النداء معنى الأمر كما يرى الزركشي إذ يقول:

" لأنك إذا قلت (يا زيد) معناه: ادعوك يا زيد، فحذفت (يا) من نداء (الرب)، ليزول معنى الأمر ويتمخض التعظيم والإجلال " [8] .

وإذا كانت اغلب خطب الرسول ﷺ مسبوقة بـ(يا ايها الناس) فإننا نجد بعضها الآخر محذوفاً منها أداة النداء (يا) وذلك لأسباب بلاغية يقتضيها الموقف. كما نرى في الأحاديث الشريفة الآتية:

" أيُّها الناسُ إليَّ ... " [1].

---

(1) يوسف / 29 .
(2) الكشاف: 315/2 .
(3) البلاغة والأسلوبية: 145 .
(4) O'Connor, J.D.and Amold , G.F.Intonation of Colloquial English , Longman, London, 1973, p. 46.
(5) فتح الباري: 724/9 .
(6) نفسه: 234/11 .
(7) نفسه: 161/10 ؛ وللمزيد ينظر: 570/13 ؛ 580/11 ؛ 136/11 .
(8) البرهان: 213/3 .

" أيُّها الناسُ تَصدَّقوا ... " [2].

" أيُّها الناسُ، لا تتمنَّوا لقاءَ العدوِّ، وسَلوا اللهَ العافيةَ " [3] .

---

(1) فتح الباري: 513/2 .
(2) نفسه: 415/3 .
(3) نفسه: 149/6 .

" أيُّها الناسُ، إربَعوا على أنفُسِكم، فإنكم لا تَدْعونَ أصمَّ ولا غائباً، ولكن تَدعون سميعاً بصيراً .... " [1] .

ان هذا النداء الذي حذفت منه (يا)، إشارة الى قرب هؤلاء الناس منه، وشدة التصاقهم به، ومحاولة لاستمالتهم، وقبول ما يلقى عليهم من حسن التوجيه، وسديد الإرشاد، وأشعاراً بمودته لهم، والاستغناء عن (يا) قد حقق كل هذه المعاني، وحقق القرب والتلاحم مع أبناء الأمة الذين زالت الهوة بينهم وبين معلمهم وهاديهم[2] .

النداء البلاغي

الصورة الأولى: خروج أدوات النداء عن أصل استعمالها في الحديث الشريف

قد تخرج أدوات النداء عما وضعت له في أصل اللغة، فينادى القريب بإحدى الأدوات المستعملة لنداء البعيد، او بالعكس، وهذا التبادل يتم لإغراض بلاغية، ولطائف أسلوبية دقيقة.

وقد أطلق احد الباحثين مصطلح النداء البلاغي على هذا النوع من الاستعمالات، وأطلق مصطلح النداء الحقيقي على أدوات النداء المستعملة فيما وضعت له في الأصل[3].

فقد تستعمل (الهمزة) و (أي) الموضوعتان أصلاً لنداء القريب في نداء البعيد، تنزيلاً له منزلة القريب، إشارة الى قربه من القلب وحضوره في الذهن، لا يغيب عن البال، حتى صار كالمشهود الحاضر[4] .

وقد ينزل القريب منزلة البعيد فينادى بإحدى أدوات النداء المستعملة في نداء البعيد لغرض التوكيد في تنبيه المخاطب، والإشارة الى أهمية وعظم الخطاب الموجه اليه، كما ذكر الزمخشري في قوله: " (يا) حرف وضع في أصله لنداء البعيد، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معني به جداً[5]. كقوله تعالى: " ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [6] .

---

(1) نفسه : 224/11 .
(2) خطبة الوداع، دراسة بلاغية تحليلية، د. جليل رشيد فالح، مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد 13، 1981، ص 409 .
(3) البلاغة الإصلاحية: 186 .
(4) مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي – شروح التلخيص 334/2 .
(5) الكشاف: 224/1 .
(6) البقرة / 21 .

فينزل القريب تنزيل من بعد لأنهم يرون انه لا يقبل عليهم الا بالاجتهاد في رفع الصوت ومدّه[1] .

وهناك أغراض بلاغية أخرى تخرج لأجلها أدوات النداء عن استعمالاتها الأصلية، ذكرها البلاغيون، منها[2].

1. الدلالة على ان المنادى رفيع القدر، عظيم الشأن، كقولنا يا الله، يا رب، مع انه اقرب الينا من حبل الوريد، فنجعل بعد المنزلة كأنه بعد في المكان.
2. الإشارة الى ان المنادى وضيع منحط الدرجة، فكأنه بعيد عن مجلس الحضور، كقوله تعالى على لسان فرعون ﴿لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ [3] .
3. او للحرص على إقبال المنادى والرغبة والرضا بذلك، فصار إقباله كالبعيد كقوله ﷺ لبلال رضي الله عنه:

" يا بلالُ حدّثني بأَرجى عملٍ عملتَهُ في الإسلام، فإني سمعتُ دَفَّ نَعليكَ بينَ يَديَّ في الجَنَّةِ " [4] .

4. للأشعار بان السامع غافل او نائم او ساهٍ او بليد، فيعدّ كأنه غير حاضر في مجلسك فيكون كل من النوم والسهو والغفلة والبلادة بمنزلة البعد في إعلاء الصوت للتنبيه على عظم الأمر المدعو اليه. كقوله ﷺ.

" يا مَعشرَ قريش، اشتَروا أنفُسَكم، لا أُغني عنكم مِنَ الله شيئاً " [5].

وقد استعملت (يا) في حديث رسول الله ﷺ تبعاً للأسباب المذكورة او لواحدٍ منها[6]. من ذلك قوله ﷺ في حادثة كسر ثنية لجارية[7] من قبل الربيع بنت النضر – – عمة أنس بن مالك – وكان رسول الله ﷺ قد أمر بالقصاص، فقال أخوها انس بن النضر: يا رسول الله، أتكسر ثنية الربيع؟ فرد رسول الله:

" يا أنسُ كتابُ اللهِ القصاصُ " [8].

وقوله ﷺ لأبي موسى الاشعري عندما جاء اليه ومعه رجلان يطلبان الإمارة فقال له:

---

(1) الكتاب: 230/2 ؛ الكشاف 224/1 .
(2) الإتقان 83/2 ؛ وينظر: البلاغة الاصطلاحية: 186 ؛ علم المعاني، درويش الجندي: 59، علم المعاني، عبد العزيز عتيق: 126، من بلاغة النظم العربي: 136 .
(3) الإسراء / 101 .
(4) فتح الباري: 42/3 .
(5) نفسه: 643/8 .
(6) معظم نداء الرسول ﷺ كان على خلاف مقتضى الظاهر لمعان ثانية سنقف عليها لاحقاً .
(7) التثنية أي السن لسان العرب (ثنى) 133/18 . الجارية المرأة الشابة لا الأمة ليتصور القصاص بينهما شرح الكرماني 14/12 .
(8) فتح الباري: 223/8-224 .

" يا أبا موسى – لن – أولا – نَستعملُ على عملنا من أرادَهُ " [1] .

لقد عمد رسول الله ﷺ الى (يا) النداء في مخاطبته أنساً ﷺ في الحديث الأول، خلافاً لأصل استعمالها، وذلك لتنزيل المخاطب القريب منزلة البعيد. والبعد هنا ليس بالجسد بل بالفكر، فقد غفل أنس عن حكم الله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ ﴾ [2].

وأراد رسول الله ﷺ إن ينبه أبا موسى على أمر قد غاب عنه وغفل، فاستعمل (يا) لهذا الغرض، وهو انه لا يتولى أمر المسلمين من يطلبه، لئلا تكون في النفس منه حاجات ومطامع ذاتية تنتقص من حقوق المسلمين.

وما يلاحظ أن أكثر خطب الرسول ﷺ تبتدئ بأداة النداء (يا) تليها (أيها) لما في (أيها) من عناصر لغوية ذات تأثير في اللفت والإيقاظ والتوكيد، وان هذا التوكيد مستفاد من معاضدة (ها) التنبيه أداء النداء، ومن التدرج من الإبهام في (أي) الى التوضيح في صفته، وفي هذا التدرج من الإبهام الى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد[3] .

وأحاديث رسول الله وخطبه تتطلب تنبيهاً أشد، وتوكيداً أكثر " لأنها أمور عظام وخطوب جسام ومعان على المسلمين ان يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم اليها وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال ان ينادوا بالآكد الابلغ " [4] .

من ذلك قوله ﷺ:

" يا أيُّها الناسُ، إنما الأعمالُ بالنيَة، وإنما لأمرئٍ نَوَى ... " [5] .

" يا أيُّها الناسُ، إنما ضلَّ مَن كان قَبْلكم أنهم كانوا إذا سَرَق الشريفُ تركوه، وإذا سرقَ الضّعيفُ فيهم أقاموا عليه الحدَّ ... " [6][7] .

ان نداء الناس بـ (يا أيها) وهم حضور يستمعون، استحضار آخر لأذهانهم، وتأكيد الخبر في إفهامهم، وتنبيه للسامع على العناية به. فكأن قول (يا أيها) " تكرار (يا) النداء مرتين، لما في الألف والهاء اللتين لحقتا (أي) من التوكيد " [8] وذلك لجسامة الموقف وخطورته وضرورة إبلاغه.

---

(1) نفسه: 12/331-332 .
(2) المائدة / 45 .
(3) الكشاف: 1/225 ؛ معترك الإقران: 1/448 .
(4) الكشاف: 1/226 .
(5) فتح الباري: 12/405 .
(6) نفسه: 12/103-104 .
(7) للاستزادة ينظر، فتح الباري: 2/254 ؛ 3/138 ؛ 10/385-386 .
(8) الكتاب: 2/197 .

ان هذا الاختيار لأداة النداء المناسبة بحد ذاته، عمل واع يتطلب من المتكلم المعرفة بأقدار الكلام وأقدار المعاني، فيختار ما يناسب الخطاب أولاً، والمتلقي ثانياً، والسياق ثالثاً.

الصورة الثانية: المعاني الثانية التي تدل عليها أدوات النداء في الحديث الشريف

قد يخرج أسلوب النداء عن معنى الإقبال كلية، وينسى القريب والبعيد جملة، ويختلف النداء هنا عن الصورة البلاغية الأولى، فالأولى فيها روح النداء وهويته، أما هذه الصورة فلها أغراض جديدة مخالفة لطلب الإقبال.

وقد تنوعت هذه المعاني بتنوع موضوعات الكلام، وبحسب مقتضيات أحوال المخاطبين. ولهذا فإن فهم أي تركيب ندائي لا يتم إلا بوضع هذا التركيب في سياقات متتابعة تستدعيها الإشارة الصوتية (الأداة) وتستلزم هذه الأداة في جميع الأحوال قرينة معنوية يشير اليها السياق لتخلق المعنى المقصود، والصورة التي يريدها المتكلم.

وكما قال احد الباحثين: " ليس لنا ان نقول كما قال البلاغيون بأن هذه الأدوات تختلف في معانيها، إنما نقول: ان ظلال معنى الجملة وإيحاءاتها تضفى على الأداة شفافية مستمدة من هذا المعنى، فتلون الأداة فتوحي بأنها للتحبب او للإغراء او للاستغاثة او للتحقير او للتعظيم " [1].

ومن هذه المعاني التي يمكن ان تستنبط من أحاديث رسول الله ﷺ:

1- الدعاء

وقد خرج النداء الى غرض الدعاء في الحديث الشريف. فقد نادى رسول الله ﷺ ربه – عز وجل – في مواضع كثيرة، كلها دعاء وتضرع الى الله بالاستغفار، وطلب الرحمة له او لأصحابه.

واغلب ما ورد على لسانه الشريف من أدوات النداء في هذا المقام (اللهم). والدعاء بـ (اللهم) فيه خصوصية ليست في غيره تشعر المؤمن انه قريب من الله عز وجل يستجيب الدعاء ويحقق الرجاء.

إن في لفظ الجلالة الأفخم (اللهم) رونقاً خاصاً وجرساً معيناً – قد يتأتى من أصوات حروفه – فيحس قائلها بالتذلل والخضوع والإيناس والتقرب ففي اللهم " فخامة وروعة لا تحس بهما في يا الله " [2] ويدرك هذا المعنى من السياق والنغمة الصوتية المصاحبة للجملة.

---

(1) البلاغة العربية في ثوبها الجديد: 117 .

(2) من بلاغة القرآن، احمد احمد بدوي: 169 .

وفيما يأتي نماذج من دعائه ﷺ بهذه الأداة:

" اللهمَّ إنّي ظَلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، ولا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلاّ أنتَ فأغفِرْ لي مَغفِرةً من عندِكَ ... " [1].

" اللهمَّ إنّي أنشُدُكَ عهدَكَ ووَعدَكَ، اللهمّ ان شِئتَ لم تُعبَدْ بعدَ اليوم " [2].

" اللهمَّ أغفِرْ لقومي فانهم لا يعلمون " [3].

فهذه الأحاديث الشريفة وغيرها كثير[4]، تفيض روحانية بما تمتلكه من مشاعر التضرع الى الله – تعالى – والخوف منه، والخضوع لأمره، وطلب الرحمة لعباده، وكلها أحاسيس يحسها المرء عبر سياق اللفظ والموقف.

وقد ورد عنه انه ﷺ دعا على قريش في عدد قليل من أحاديثه عندما أبطأوا عليه في الإسلام فقال:

" اللهم أعنِّي عليهم بسَبع كسَبع يوسُف " [5].

وعندما وضع كفارهم الدم والفرث على كتفيه الشريفين وهو ساجد يصلي عند الكعبة فقال:

" اللهمَّ عليكَ بقُريشٍ (ثلاث مرات) ثم سَمّىَ: اللهمّ عليكَ بعَمرِو بنِ هشامٍ وعُتبةُ بنِ ربيعةَ وشبيبةَ بنِ ربيعةَ ... " [6].

وقد وردت (اللهم) في عدد من أحاديث رسول الله ﷺ ليس لغرض الدعاء وإنما لاشهاد الله عز وجل على ما يقول.

كقوله ﷺ عندما أبصر نساءً وصبياناً مقبلين من عرس:

" اللهم انتم من أحبِّ الناس الي " [7].

وقال ﷺ " اللهُمّ نعم " [1] عندما سأله رجل: الله أرسلك الى الناس كلّهم؟ 000 فكلما سأله مسألة أجابه رسول الله بـ " اللهم نعم ".

---

(1) فتح الباري : 404/2 .
(2) نفسه: 123/6 .
(3) نفسه: 637/6 .
(4) ينظر: فتح الباري: 403/2، 404، 413، 525؛ 3/3، 308، 388، 521، 715؛ 121/4، 124، 436؛ 44/6، 57، 131، 198، 503؛ 110/7،125،144،167، 317؛ 70/8، 127، 172، 509، 839؛ 284/9، 691؛ 148/10-149، 157، 339،441، 532، 709؛ 117/11، 131، 156، 163، 218، 231، 340؛ 220/12، 397 ؛ 57/13، 373، 386.
(5) فتح الباري: 703/8 .
(6) نفسه: 781/1 .
(7) نفسه: 308/9 .

فالجواب حصل بـ (نعم) وإنما ذكر (اللهم) لأشهاد الله عز وجل على ذلك تأكيداً على صدقه[2] .

2- التنبيه

وهو من أكثر المعاني وروداً في خطاب رسول الله ﷺ لما في (يا) النداء من قوة في التنبيه، تحمل المخاطب على الإصغاء الى الأمر. من ذلك ان عبد الرحمن بن عوف سأل رسول الله ﷺ متعجباً، حينما رآه يذرف الدمع على ولده إبراهيم، وهو يحتضر فقال: وانت يا رسول الله؟ فأجابه الرسول بقوله:

" يا ابنَ عوفٍ إنها رحمةٌ ... أن العينَ تَدمعُ والقلبَ يحزَنُ ولا نقولُ إلاّ ما يرضي ربّنا، وإنّا بِفراقِك يا إبراهيم لمحزونون " [3].

وخاطب رسول الله بني سلمة[4] لما بلغه انهم أرادوا أن يبتاعوا بيوتاً قريبة من مسجده لبُعد ديارهم عنه فقال:

" يا بني سَلَمةَ، ألا تَحْتَسِبونَ آثاركم؟ " [5] .

وقال ﷺ للأنصار، بعدما أفاء الله على رسوله من أموال هوازن في غزوة حنين فقسمها في المؤلفة قلوبهم، ولم يُعطِ الأنصار شيئاً [6]، فكأنهم وَجَدوا، إذ لم يُصِبهم ما أصابَ الناس فخطبهم قائلاً.

" يا معشَرَ الأنصار، ألم أجِدْكم ضُلاّلاً فَهَداكم اللهُ بي، وكنتم متفرقين فالفكم اللهُ بي، وعالةً فأغناكم اللهُ بي. كلما قال شيئاً قالوا: اللهُ ورسولهُ امنُّ ... " [7] .

وقال ﷺ لأزواجه:

" ... يا رُبَّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٌ في الآخرة " [8][9] .

---

(1) نفسه: 197/1 .
(2) وتكرر المعنى نفسه في حديث آخر، ينظر فتح الباري: 134/8 .
(3) فتح الباري: 222/3 .
(4) بنو سلمة: هم بطن من الخزرج أنصار رسول الله ﷺ في المدينة المنورة .
(5) فتح الباري: 177/2 .
(6) ينظر ص 132 من البحث .
(7) فتح الباري: 59/8 .
(8) نفسه: 12/3 .
(9) لقد اختلف النحاة في الأداة (يا) إذا وليها ما ليس بمنادى كالحرف (رب) و (ليت) وغيرهما، فذهب بعضهم الى ان (يا) في هذه المواضع أداة نداء والمنادى محذوف (ينظر معاني القرآن للفراء 290/2، الكامل: 271/3، المفصل: 48 . وذهب آخرون الى ان (يا) ان وليها (ليت) او (رب) او(حبذا) فهي للتنبيه لا للنداء ينظر: الكتاب 224/4، الانصاف للانباري: 99/1-103، مغني اللبيب: 374/2 ؛ الخصائص: 279/2 .

فصيغة النداء (يا ابن عوف) في الحديث الأول تنبيه له على تلقي الخبر الذي أعقب النداء ومفاده ان الحالة التي شاهدها منه هي رقة المشاعر وحنان الوالد على الولد لا ما توهم من الجزع وقلة الصبر المنهي عنهما. وان الحزن في مثل هذه المواقف والتعبير عنه بالدموع مظهر أنساني لا يفترق فيه رسول عن غيره من البشر، لا كما ظن عبد الرحمن ﷺ.

ثم توجه بالنداء الى ولده إبراهيم متحبباً متلذذاً بذكر اسمه مع انه في ذلك الحين لم يكن ممن يفهم الخطاب لصغره أولاً، ولاحتضاره ثانياً. ولكنه ربما أراد ﷺ ان ينبه الحاضرين ومنهم عبد الرحمن ان الحزن لفراق الأحبة واقع لا مفر منه وهو لا يغضب الله تعالى ولم ينه عنه.

وأراد رسول الله ﷺ بصيغة النداء، في الحديث الثاني، متواشجة مع صيغة الاستفهام تنبيه بني سلمة وحثهم على احتساب آثارهم ليرجعوا عما نووا فعله، ويبقوا في ديارهم، وتبقى جهات المدينة عامرة بساكنيها. وفي هذا تنبيه لكل مسلم يبغي الثواب من الله تعالى، لأن الأجر على قدر المشقة.

وبدأ النبي الكريم خطبته، في الحديث الثالث، بنداء البعيد على الرغم من قرب الأنصار منه، إشارة الى تنبيههم وإيقاظ الغفلة فيهم، ثم بعد ان أثار انتباههم، ذكرهم بما كان حالهم قبل مجيئه إليهم بأسلوب الاستفهام التقريري من اجل نزع الاعتراف منهم وتثبيته، ليكون ذلك ابلغ في إقامة الحجة عليهم، فبدأ بنعمة الإيمان التي لا يوازيها شيء من أمر الدنيا، وثنى بنعمة الألفة وهي أعظم من نعمة المال. وقد اقرّوا على أنفسهم بذلك. وترشح المعنى الذي أراد الرسول الكريم ان يوصله الى المستمعين بتعاضد أسلوبي النداء مع الاستفهام الذي أعقبه في سياق متماسك متفاعل.

وأفاد النداء، في الحديث الأخير، تنبيه أزواجه – رضوان الله عليهن – على ان لا يتغافلن عن العبادة، ويعتمدن على كونهن أزواج النبي ﷺ. فلا يكنّ كاسيات بخلعة التزوج من الرجل الصالح في الدنيا، عاريات من العمل الطيب في الآخرة، فلا ينفع المرأة صلاح زوجها، كما قال تعالى: (فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ) [1][2] .

والحديث وان ورد في أزواج النبي ﷺ، لكنه يفيد استحضار أذهان عموم النساء وتذكيرهن بهذه الحقيقة.

وغرض التنبيه يترشح من أسلوب النداء في كثير من الأحاديث الشريفة[3] لا يتسع المجال لذكرها، ولعلّ ما ذكر منها يكفي لإضاءة هذا الجانب.

3- التكريم والتنويه بالفضل

---

(1) المؤمنون / 101 .
(2) فتح الباري: 280/1 ؛ شرح الكرماني: 130/2 .
(3) ينظر: فتح الباري 108/1 ؛ 255/2 ؛ 112/3، 427، 665، 315/4؛ 436/8، 743 ؛ 272/10 .

جاء عن أم هانئ بنت أبي طالب انها قالت: " قلتُ يا رسول الله زعمَ ابنُ أميّ[1] انه قاتلٌ رجلاً قد أجرْتُهُ فُلانَ ابنَ هُبيرةَ[2] . فقال رسول الله ﷺ:
" قد أَجَرْنا مَن أجرتِ يا أُمَّ هانئٍ " [3] .

جاء أبو طلحة الى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى في كتابه: (لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ) [4] وأنّ أحبَّ أموالي اليَّ بِيرحاءُ[5]، فهي الى الله عزّ وجلَّ والى رسولِهِ، فقال رسول الله:
" بَخْ[6] يا أبا طلحةَ، ذلك مال رابحٌ قبلناه منكَ وَرَدَدْناهُ عليك فاجعله في الأقربين " [7].

وقال ﷺ لأبي موسى ﷺ:
" يا أبا موسى، لقد أوتيتَ مِزماراً من مزامير آل داؤد [8] " [9] .

ففي الحديث الأول لم تستعمل صيغة النداء لطلب الإقبال، لأن أم هانئ كانت تحاوره، وتنتظر الجواب منه، فكانت في حالة قرب وانتباه لما يقول، وإنما استعملت (يا) للتكريم.

وفي الحديث الثاني أفاد النداء التكريم والتنويه بفضل أبي طلحة في الإنفاق يمازجهما المدح والرضا.

وتصدرت صيغة النداء مخاطبة الرسول ﷺ أبا موسى، في الحديث الثالث، واوحت بدلالة السياق التنويه بحسن صوت المخاطب المؤكد بالتعبير (لقد أوتيت)، وقد عبر عنه بآلة الصوت (المزمار) مبالغة في إظهار عذوبته التي تقرب من عذوبة مزمار داود عليه السلام.

---

(1) هو علي بن ابي طالب ﷺ .
(2) قيل اسمه الحارث بن هشام المخزومي . عمدة القاري 191/22 .
(3) فتح الباري: 619/1 .
(4) آل عمران /92 .
(5) بيرحاء: حديقة كان رسول الله ﷺ يدخلها ويستظل بها ويشرب من مائها . فتح الباري: 486/5 .
(6) بخْ: بوزن بلْ، كلمة تقال عند المدح والرضا بالشئ . اللسان / بخخ: 483/3 .
(7) فتح الباري: 486/5 .
(8) المراد بالمزمار الصوت الحسن، سمي باسم آلته مجازاً، والمراد بآل داود داود نفسه لأنه لم ينقل ان أحداً من أولاد داود ولا من أقاربه اعطي من حسن الصوت ما اعطي . ينظر، فتح الباري: 115/9 ؛ النهاية: 312/2 .
(9) فتح الباري: 113/9 .

فضلاً عن أن مناداة المخاطب بالكنية في الأحاديث الثلاثة دلالة على التكريم والتقدير. وقد تمثل غرض التكريم في عدد آخر [1] من الأحاديث النبوية التي انطوت على أسلوب النداء اعتذر عن ذكرها خشية الإطالة.

4- التحذير

قال رسول الله ﷺ مخاطباً النساء:

" يا مَعشرَ النساءِ تَصَدّقْنَ، فإني أُريتُكنّ أكثر أهل النارِ ... " [2].

وقال ﷺ لحكيم بن حزام بعد أن سأل الرسول فأعطاه ثم سأله فأعطاه ثم سأله فأعطاه.

" يا حكيمُ، إنّ هذا المالَ خَضِرٌ حُلوٌ، فمن أخذهُ بسَخاوةِ نفسٍ بُورِك لهُ فيه، ومَن أخذَهُ بإشرافِ نفسٍ[3] لم يُبارَكْ له فيه، وكان كالذي يأكلُ ولا يشبَعُ " [4].

وقال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن سَمُرة:

" يا عبدَ الرحمنِ بن سَمُرة، لا تسألِ الامارةَ، فانك إن أُوتيتَها عن مسألة وكِلتَ اليها، وان أُوتيتَها من غير مسألة أُعِنْتَ عليها .... " [5].

لقد أوحى النداء في هذه الأحاديث بالتحذير والتخويف.

ففي الحديث الأول نرى ان النبي ﷺ وجه نداءه الى عامة النساء فقال: يا معشر النساء ... ومعنى ذلك ان الأمر الذي سيتكلم عليه جد خطير وانه ينبغي ان يكون موضع عناية المخاطبات لأن " النداء في اللغة العربية إذا سبق طلباً كان دالاً على شدة اهتمام المتكلم بهذا الطلب، وحرصه على تنفيذه من جهة، وعلى ان الأمر مقصور على المنادى من جهة أخرى " [6].

هذا الأمر هو الحث على الصدقة، علها تدفع العذاب عنهن، وتكفر ذنوبهن. لذلك فقد راعى الرسول الكريم مقتضى الحال الداعي الى التحذير والتخويف من تلك العاقبة، وعمد الى الابتداء بأسلوب النداء كمنبه تعبيري يوقظ الأذهان والمشاعر من غفلتها، ويهيئها لتلقي الأمر والخبر المؤكد الذي سيعقبه، وينتظم الكل في إطار

---

(1) ينظر: فتح الباري 284/5 ؛ 23/7 ؛ 658/9 ؛ 545/10 .
(2) نفسه: 534/1 .
(3) سخاوة نفس: يقال سخّيت نفسي عنه أي تركته ولم تنازعني نفسي اليه . اللسان (سخى) 94/19 . والإشراف: الحرص والطمع . اللسان (شرف) 74/11 .
(4) فتح الباري: 474/5 .
(5) نفسه 633/11-634 .
(6) نداء المخاطبين في القرآن، د. علي عبد الواحد وافي، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الثامن، 1978 م، ص 85 .

التحذير. وهكذا فقد حقق أسلوب النداء متضافراً مع الأساليب الأخرى في نسيج الحديث قدراً من التأثير والاستجابة النفسية الذهنية عند المخاطبات وبلغ الكلام معهن غايته.

أما النداء في الحديث الثاني فقد أفاد تحذير (حكيم) من الإعجاب بالمال والافتنان به والالحاف في طلبه، ومن اجل تعميق هذا المعنى وترسيخه في ذهن المخاطب شبه المال بالرغبة فيه والميل اليه وحرص النفوس عليه بالفاكهة الخضراء اللذيذة الطعم، فالأخضر والحلو منها مرغوب فيه بالنسبة للبابس والمر، وإذا اجتمعا يكون الإعجاب والرغبة فيهما اكبر واشد. ولا شك ان عدم قناعة المخاطب بالقليل من المال وإلحاحه في الطلب أمر خطير يجب ان ينبه عليه ويحذر منه.

وكذلك دل النداء في الحديث الثالث على تحذير عبد الرحمن بن سمرة ﷺ من طلب الإمارة لأن من طلب الإمارة فأعطيها تركت اعانته عليها من اجل حرصه، ومن أعطيها من غير مسألة، فقد وعد بالإعانة لأنه لا يرى نفسه أهلاً لذلك، هيبة له وخوفاً من الوقوع في المحذور، فلهذا يعان عليه إذا دخل فيه[1].

وقد تخصص الخطاب بالمنادى (عبد الرحمن) وكأنه سأل الأمارة والحف في الطلب فجاء الحديث محذرّاً ومبيناً سبب المنع.

ويلاحظ في الحديثين الأخيرين ان النداء كان بذكر الاسم، وليس بالكنية او اللقب، وذلك – في اعتقادي – لأن المقام مقام تحذير وتخويف، وهذا يقتضي القصد الى الاسم المجرد من دون تفخيم او تحبب[2].

5- التأنيس والتسلية

قال ﷺ لأم حارثة[3] عندما سَأَلَتْه عن منزلة ابنها الذي استشهد يوم بدر:

" يا أُمَّ حارثةَ، انها جِنانٌ في الجنةِ، وإنّ ابنكِ أصابَ الفِردَوسَ الأعلى " [4].

وخطب النبي ﷺ فقال: " إنَّ اللهَ خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عندَه، فاختارَ ما عندَ الله ". فعلم أبو بكر ﷺ ان رسول الله اختار الرفيق الأعلى، وانه مفارقهم قريباً، فبكى ... فقال له رسول الله:

" يا أبا بكرٍ لا تبكِ، إنّ أَمَنَّ الناسِ عليَّ في صُحبَتِهِ ومالِهِ ابو بكرٍ ولو كنتُ مُتَّخذاً خليلاً من أُمتي لاتّخذْتُ ابا بكر، ولكنْ أُخُوّةُ الإسلام ومَوَّدتُهُ ... " [5].

---

(1) ينظر: فتح الباري: 156/13 .

(2) لمزيد من الأحاديث الشريفة في معنى التحذير ينظر ؟ فتح الباري: 255/2 ؛ 318/5 ؛ 311/13 .

(3) ذكر الكرماني ان أم حارثة هي الربيع بنت النضر وهي عمة انس بن مالك . شرح الكرماني: 111/12 .

(4) فتح الباري: 32/6 .

(5) نفسه: 734/1 .

وقال ﷺ لمخرَمَةَ بنِ نَوفَل، وهو يهديه قَباء من دِيباج مُزرَّد بالذهب، وكان بصحبة ابنه المِسْوَر:

" يا أبا المِسْوَرِ خَبّأْت هذا لك، يا ابا المسورِ خَبّأتُ هذا لك " [1].

لقد تصدت صيغة النداء جواب رسول الله ﷺ في الحديث الأول لأم حارثة تطميناً لقلبها، وتأنيساً ومواساة لنفسها الحزينة على فراق ابنها، فقد أفاد النداء التمهيد والتعضيد للخبر الذي أراد الرسول ﷺ ان يسري به عن ام الشهيد وهو بيان منزلة ولدها.

وتواشجت صيغة النداء مع صيغة النهي، في الحديث الثاني، في أسلوب موحد ينهض بمعنى التأنيس والترفيه عن نفس أثقلها الهم حتى فاضت دمعاً، فأراد الرسول الكريم ان يبدد حزن صاحبه ورفيق دربه ويشيع المسرة في نفسه بذكر مآثره، وما يكنه له من ود، جسّده ﷺ بأسلوب خبري مؤكد أعقب الطلب ووشى بمعناه.

ونادى رسول الله مخرمة بـ(أبا المسور) على سبيل التأنيس وتطييب خاطره بذكر ولده الذي جاء بصحبته، وإلا فكنيته في الأصل (أبو صفوان) وهو اكبر أولاده[2].

وقد مال رسول الله الى ملاطفة مخرمة ومؤانسته لما كان في خلق مخرمة من الشدة وبذاءة اللسان كما يقول شارح الحديث[3]. وكرر النداء إمعاناً في تطييب نفس المخاطب والتلطف معه. وهو ابلغ البلغاء يراعي المقام ونفسية المخاطب في كلامه فيخاطب كل إنسان بما يناسبه، فيستميله ويبلغ منه القصد.

(1) نفسه: 278/6 .
(2) نفسه: 332/10 .
(3) ابن حجر في كتابه المذكور .

6- الزجر والتأنيب

وقد يحمل النداء معنى الزجر كقوله ﷺ مخاطباً اليهود:

" يا معشَرَ اليهود، وَيْلَكم اتقوا الله، فواللهِ الذي لا الهَ الا هُوَ إنّكم لَتَعلمون أني رسولُ الله حقاً، واني جئتكم بحق، فأسلِموا " [1] .

وقال ﷺ لمعاذ بن جبل، وقد علم انه يطيل في صلاته، وكان إماماً للجماعة:

" يا مُعاذُ، أفتّان أنت؟ " ثلاث مرات [2] .

يفيد سياق الحديث الأول زجر اليهود وتوبيخهم على ما أبدوه من إنكار الدعوة الإسلامية وتكذيب الرسول الكريم قصداً، ويشدد الحديث معنى الزجر باستعمال (ويلكم) بمعنى الهلاك، والإكثار من أدوات التوكيد وصيغه التي تفضح أكاذيبهم وتثبيت صدق الرسول ﷺ. وفوق هذا وذاك فإن الحديث يبتدئ بصيغة نداء، أداتها للمنادى البعيد، للحط من شأنهم، والتنبيه على غفلتهم وعنادهم. فأسلوب النداء في الحديث تكاتف مع الأساليب الأخرى لإبراز معنى الزجر والتوبيخ في السياق العام.

والياء في الحديث الثاني تفيد اللوم والتأنيب، لإطالة معاذ ﷺ، في الصلاة لأن ذلك منفّر للجماعة، وقد يكون سبباً لخروج البعض من الصلاة.

وقد استعملت أداة النداء (يا) لمخاطبة القريب خلافاً للأصل من اجل تنبيه المخاطب الى الفعل المنكر الذي جاء بصيغة (فتان) مبالغة في الإنكار، فضلاً عن أن النداء الدال على القرب، له وقع خاص على المخاطب إذ يهز النفس هزا، ويعيدها الى مسارها.

وقد تعاضد النداء مع الاستفهام مع التوكيد بأسلوب التكرار لترسيخ معنى الإنكار المتآزر مع اللوم والتأنيب على هذا الفعل الذي قد يضر من حيث أريد به النفع، وفي هذا اللوم تعليم وإبلاغ في الموعظة حتى لا يقدم احد من المسلمين على تكرار مثله مستقبلاً[3].

7- الندبة

وهو أسلوب تأثري انفعالي يعبر عن مشاعر العاطفة عبر كتلة لغوية تعد من النقوش الكلامية[4]، وهي نداء المتفجع عليه او المتوجع منه، وقد وردت قليلاً جداً في الحديث الشريف ويعد السياق عنصراً رئيساً للتمييز بين النداء الحقيقي والندبة، إذ إن كلا منهما يرتبط بسياق معين يوجه دلالته ويوضح معناه.

---

(1) فتح الباري: 318/7 .
(2) نفسه: 255/2 .
(3) ينظر المعنى نفسه، فتح الباري: 235/12 .
(4) اللغة والمعنى والسياق: 266 .

من ذلك قول النبي ﷺ عندما سمع السيدة عائشة (رضي الله عنها) تندب رأسها فردّ عليها:

" بل أنا وارأساه ... " [1].

وصعد رسول الله ﷺ الصَّفا ذاتَ يومٍ فقال:

" يا صباحاه " [2] فاجتمعت اليه قريش، قالوا: مالك؟ قال: أرأيتم لو أخبرتكم أنّ العدوَّ يصّبحكم او يمسّيكم أما كنتم تصدِّقونني؟ قالوا: بلى. قال: فإني نذيرٌ لكم بين يَدَي عذابٍ شديدٍ " [3] .

فاستعمال (وا) بصوتها الممدود المتصل بمدّ آخر في الألف اللاحقة بالمنادى تتلوها الهاء للتنبيه، لهو دليل على التوجع الذي تنفثه النفس آهات متواصلة لما لحق بالرأس من ألم.

واستعمال (يا)، في الحديث الثاني، واتصال المنادى بالألف وهاء الوقف، من اجل إطالة الصوت ومدّه، مبالغة في إظهار انفعاله وحزنه على قومه الذين يصدون عن الإصغاء لدعوة الحق. ولعل صيحة الندبة الصادرة من قمة الانفعال هذه، توقظ مشاعر المخاطبين وتحفزهم الى الاستجابة والامتثال للأمر المطلوب.

وعند التأمل في سياق الحديثين نرى ان الندبة تقال في لحظات معينة تحت تأثير الانفعال والضغط النفسي الآتي، للتخفيف عن النفس بما لحقها من شدة الألم – في الحديث الأول – او وطأة الحزن، في الحديث الثاني، فكأن (وا) و (يا) صرخة فلتت من عقال المعاناة والإحساس بالألم، وهي في الوقت نفسه توقف السامع على عظم هذه المصيبة عند النادب، مما جعلته منفعلاً الى أقصى درجات الانفعال يعبر عن شدة ألمه او حزنه بمصاحبة النغمة الصوتية التي " تحمل شحنة دلالية وشحنة انفعالية " [4][5].

8- الاختصاص

وقد استعملت صيغة النداء في معنى الاختصاص في قوله ﷺ " إنَّ لكلِّ امةٍ أميناً، وإن امينَنا – أيَّتُها الأمة – ابو عُبيدةَ بنُ الجّراح "[6] .

وقال ﷺ لأسماء بنت عُميس[7]:

---

(1) فتح الباري: 254/13 .
(2) كلمة تقال عند استنفار من كان غافلاً عن عدوه، ومعناها ان العدو هجم عليكم صباحاً، لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح . النهاية: 3/6-7 .
(3) فتح الباري: 692/8 .
(4) الألسنية العربية، ريمون طحان: 85 .
(5) للاستزادة ينظر: فتح الباري: 535/3 .
(6) فتح الباري: 116/7 .
(7) هي زوج جعفر بن أبي طالب (رض)، كانت قد هاجرت الى الحبشة فيمن هاجر .

" ... ولكم انتم – أهل السفينة – هجرتان " [1] .

لم يناد رسول الله في الحديث الأول الأمة نداءً حقيقياً، وإنما أراد ان يختص امة الإسلام من بين الأمم، كما يختص المدعو بأن أمينها هو أبو عبيدة بن الجراح.

وجاءت صيغة النداء (أيتها الأمة) لتفيد تأكيد الاختصاص المتحقق بضمير المتكلم المتصل بـ (أميننا). يقول سيبويه في مثله: " أراد ان يؤكد لأنه قد اختص " [2] .

وقد حقق أسلوب الاختصاص هذا تعميق دلالة الثناء على أبي عبيدة بن الجراح ﷺ.

أما الحديث الثاني فقد خص أهل السفينة بأن لهم هجرتين، هجرة من مكة الى الحبشة، وهجرة من الحبشة الى المدينة. وكان الاختصاص أسلوباً مؤكداً لما جاء في الحديث بما يمتلكه من صفة التخصيص والتعيين[3].

9- التحسر والتوجع

قال ﷺ:

" لا تقومُ الساعةُ حتى يَمُرَّ الرجلُ بقبرِ الرجل فيقولُ: يا ليتني مكانه " [4].

وقال ﷺ في الجنازة:

" إذا وُضِعَتِ الجنازةُ، فاحتملها الرِّجالُ على أعناقِهم فإنْ كانت صالحةً قالت: قدِّموني. وان كانت غيرَ صالحةٍ قالت لأهلها: يا وَيْلَها، أين يذهبون بها؟ يَسمعُ صوتَها كلُّ شيءٍ إلاّ الإنسانُ، ولو سَمِعَ الإنسانُ لصَعِقَ " [5] .

ان هذا الصوت المنبه اللافت (يا) الذي سبق (ليتني) لا يراد به النداء الحقيقي وإنما نحس بمشاعر التوجع والتحسر، واللهفة المكروبة وراءه، لأن تمني ما لا سبيل الى تحقيقه يترجم هذه المشاعر الحبيسة، ويعبر عن هموم النفس وأحزانها.

ونداء الروح للويل وهي مما لا يجيب ولا يفهم، في الحديث الثاني، أشبه بالاستغاثة او الصرخة فكأنها دعت ويلتها بأن تحضر في ذلك الوقت لما عرض لها من الأمر الفظيع لتنقذها من الهلاك.

وكأن الذي ينادي الحسرة او الويل يقول: أقربي او احضري فهذا أوانك وزمانك[6] وفي ذلك إظهار لشدة الجزع والتوجع، وتعظيم الأمر على نفس المتكلم

---

(1) فتح الباري: 618/7 .
(2) الكتاب: 232/2 .
(3) وينظر المعنى نفسه: فتح الباري: 118/6 .
(4) فتح الباري: 93/13 .
(5) نفسه: 238/3 .
(6) الكتاب: 217/2-219 ؛ البرهان 325/3 ؛ النهاية: 236/5 .

وعلى سامعه. وقد أضاف الويل الى الغائب حملاً على المعنى كأنه لما أبصر نفسه غير صالحة نفر منها وجعلها كأنها غيره[1].

ولا يخفى ان الرسول ﷺ كان يبغي من وراء ذلك التنبيه والإيقاظ والتحذير.

10- وقد تستعمل (يا) النداء في سياق المداعبة والمزاح والملاطفة كما في حديثه ﷺ الى أبي عمير[2] .

" يا أبا عُمَير ما فَعلَ النّغَير؟ [3] " [4] .

فالنداء لم يقصد به الاستدعاء وإنما قصد به المزاح والدعابة وملاطفة الصبي عندما وجده حزيناً.

والتكرار النمطي في الكلام المسجوع على حرف الراء (عمير ونغير) يخلق إيقاعاً صوتياً يتناغم مع مضمون التعبير، ويتناسب مع صغر المخاطب، وكله يتساوق لفظاً ومعنى ليضحك الصبي ويبدد حزنه.

ان في هذا الاختيار الموفق للألفاظ ونظمها في أساليب متناسبة مع المواقف والأحوال والأعمار والمستويات المختلفة، لتتجلى روعة بلاغة الرسول الكريم.

11- وقد يأتي النداء ليفيد معنى التحبب والملاطفة كقوله ﷺ لابنته فاطمة (رضي الله عنها) عندما أقبلت عليه:

" مَرحباً يا ابنتي " [5] .

فالنداء هنا- كما أرى – أفاد معنى التحبب والتلذذ بذكر (الابنة).

كما ان في إضافة المنادى الى ياء المتكلم دليل المجاملة واللطف والرفق واللين كما يقول الزمخشري في مثله[6] .

12- وقد يستعمل أسلوب النداء في سياق جدّي لإثارة الهمة والعزيمة والشجاعة، كما جاء في نداء الرسول ﷺ يوم حنين إذ نادى يومئذ نِداءَين لم يَخلِط بينهما: التفتَ عن يَمينه فقال " يا معشرَ الأنصار، قالوا: لبّيكَ يا رسول الله، أبشِرْ نحنُ معكَ ". ثم التفتَ عن يسارِهِ فقال: " يا مَعشرَ الأنصار، قالوا: لبّيكَ يا رسولَ الله، أبشِرْ نحنُ معكَ " [7] .

---

(1) شرح الكرماني: 104/7 .
(2) عمير: الأخ الصغير لأنس بن مالك من أمه .
(3) النغير: تصغير النُغير: وهو طير كالعصافير حُمُر المناقير . اللسان (نغر) 81/7 .
(4) فتح الباري: 644/10 .
(5) نفسه: 778/6 .
(6) ينظر الكشاف: 510/2 ؛ دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القسم الأول، الجزء الثالث: 634 .
(7) فتح الباري: 67/8 .

فالنداء هنا وسيلة لإثارة الهمم والإغراء بالجهاد والحث على القتال.

13- **وقد لا يستعمل النداء لهذا الغرض او ذاك وإنما يكون القصد منه تخصيص المنادى كقوله ﷺ لبني أرْفِدة [1] عندما رآهم يلعبون بالدَّرَقِ والحراب[2] في يوم عيد في المسجد:**

" دونَكم يا بني أرْفِدةَ " [3].

فالنداء أفاد تخصيص بني ارفدة بأنه يغتفر لهم مالا يغتفر لغيرهم لأن الأصل في المساجد تنزيهها عن اللعب، فيقتصر على ما ورد فيه النص[4] .

تكرير النداء في الحديث الشريف وبلاغته

لاحظنا ان النداء قد يأتي مكرراً في عدد من الأحاديث الشريفة وذلك لأسباب بلاغية يقتضيها المقام من ذلك إضافة الى ما ذكر قوله ﷺ.

" يا أُمّةَ محمدٍ، والله ما مِن أحدٍ أغْيَرُ من اللهِ إن يزنـيَ عبدُهُ او تزنـيَ أَمَتـهُ. يـا أُمّةَ محمدٍ، لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتم قليلاً ولَبَكيتُم كثيراً " [5].

وقال ﷺ لكعب بن مالك في دَيْنٍ له:

" يـا كعبَ بـنَ مالـكٍ، يـا كعـب. قـال: لبّيك يـا رسول الله، فأشـار بيده أنْ ضَـعِ الشطرَ[6] من دَيْنِكَ، قال كعب: قد فَعلتُ يا رسول الله ... " [7] .

وقال ﷺ لمعاذ بن جبل:

" يا مُعاذُ بن جَبَل. قال: لبّيك يا رسول الله وسَعَديكَ. قال: يا مُعاذُ. قال: لبيك يا رسول الله وسَعدَيك (ثلاثاً). قال: مـا مِنْ احدٍ يَشـهدُ ان لا إلـهَ إلا الله وان محمداً رسولُ اللهِ صِدْقا من قلبهِ إلاّ حرّمَهُ اللهُ على النارِ " [8].

إن في إعادة النداء بـ (يا امة محمد) في الحديث الأول – زيادة تنبيه للمسلمين وإيقاظاً لهم، بأن ما يخبرهم به أمر عظيم الشأن، فهذا النداء المكرر كما يقول الزمخشري في مثله: " استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد،

---

(1) بنو ارفدة: هو لقب للحبشة وقيل هو اسم جنس لهم وقيل اسم جدهم الأكبر . ينظر عمدة القاري: 14 /187 .

(2) الدّرَقُ: الترس الذي يتخذ من الجلود . اللسان (درق) 384/11 .

(3) فتح الباري: 559/2 . دونكم: كلمة الإغراء بالشيء والمغرى به محذوف أي ألزموا ما انتم فيه فيه وعليكم به . شرح الكرماني 60/6 .

(4) نفسه: 563/2 . وينظر المعنى نفسه في: 239/7 .

(5) فتح الباري: 672/2-673 .

(6) الشطر: النصف .

(7) فتح الباري: 738/1 .

(8) نفسه: 300/1-301 .

وتطرية الإنصات لكل حكم نازل وتحريك منهم لئلا يفتروا ويغفلوا عن تأملهم " [1] .

كما يلاحظ انه عدل عن الخطاب بالمضمر (يا أمتي) الى الخطاب بالظاهر (يا امة محمد) كأنه أبعدهم عنه فخطابهم بهذا الخطاب، لأن المقام مقام تخويف وتحذير[2] .

.

أما الحديث الثاني ففيه نصح وإرشاد، ولذا كرر النداء في قوله (يا كعب) لزيادة تنبيه المخاطب تلطفاً به وحملاً له على قبول النصيحة، كما يقول الزمخشري في مثله[3]. وقد أجاب الصحابي بالجملة المؤكدة مبالغة في امتثال الأمر.

وكرر ﷺ النداء، في الحديث الثالث، ثلاث مرات ليهيء ذهن السامع الى ما يقول ويوقظ انتباهه لتلقي ما يخبره به، والتأكيد على تفهمه وضبطه لأهميته. يقول الزمخشري: " فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك التأكيد المؤذن بان الخطاب الذي يتلوه معنى به جداً " [4] فكيف إذا كان النداء مكرراً ثلاث مرات!.

أما التكرار في الدعاء فله معنى آخر مختلف ألا وهو الدلالة على شدة التضرع والتلهف على الاستجابة، والإلحاح في الطلب، والالتجاء إليه سبحانه.

كقوله ﷺ داعياً ربه عز وجل في ركوعه وسجوده:

" سبحانَكَ اللهمَّ ربَّنا وبحمدِك، اللهمَّ أغفِرْ لي " [5] .

" ربِّ اغفر لي خَطيئتي وجَهلي، وإسرافي في أمري كلِّهِ وما انتَ اعلم به مني، اللهم أغفر لي خَطاياي وعَمدي، وجَهلي وجِدّي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخرَّرتُ، وما أسرَرْتُ وما أعلَنْتُ ... " [6] .

" اللهمّ انج المستضعفين من المؤمنين. اللهمّ اشدُدْ وَطْأتكَ على مُضَر، اللهمّ اجعَلها عليهم سنينَ كسِنِي يوسُف " [7] .

وهكذا يتبين لنا أن التكرار ذو فاعلية مؤثرة في الأداء على المستويين الصوتي والدلالي، تكثيفاً وتعميقاً، فهو " بمثابة منبه فني يندفع منه المعنى او يتوقف عنده " [8][9].

---

(1) الكشاف: 554/3 .
(2) عمدة القارئ: 71/7 .
(3) ينظر الكشاف: 429/3 .
(4) الكشاف: 224/1 .
(5) فتح الباري: 358/2 .
(6) نفسه: 234/11 .
(7) نفسه: 231/11 .
(8) التكرار النمطي في قصيدة المديح عند حافظ، دراسة أسلوبية، د. محمد عبد المطلب ؛ مجلة فصول، المجلد الثالث، الجزء الثاني، العدد الثاني، 1983، ص 51 .
(9) ينظر المعنى نفسه في فتح الباري: 278/6 ؛ 125/7 ؛ 51/8 ؛ 724/9 ؛ 487/10 ؛ 72/11 ؛ 57/13 .